الأصالة عند عبد الرحمن الحاج صالح

أ.بوخاتمي زهرة
جامعة سيدي بلعباس

الملخص:

تنوعت الاهتمامات البحثية للعلامة عبد الرحمن الحاج صالح، فما كاد يصب انشغاله على الدرس اللساني حتى ذهب يغترف فيضا من الإرث اللغوي العربي، ويطعمه بشيء من الدروس اللغوية الغربية الحديثة، لقد كان مصطلح الأصالة المفتاح الذي ولج به معالم هذا البحث، وبذل جهدا في الحفاظ على اللغة العربية وإرثها اللغوي والأدبي على حد سواء، لقد كان يصر على المعرفة بالنماذج القديمة التي تكسب المرء اللغة الفصيحة وليست تلك اللغة المتصنعة التي يغلب عليها الزخرف اللفظي، إذ لا يتوجب على هذا المرء أن يحفظ قواعد اللغة حتى يتحكم في آليات الصناعة اللغوية، إن الأصالة حسب مفهوم عبد الرحمن الحاج صالح ليست مقابلا للحداثة وإنما تقابل التقليد أيّا كان المقلّد.

ما نرومه من خلال هذه الصفحات هو فتحها لمباحثة الأصالة عند عبد الرحمن الحاج صالح مفهوما وتطبيقا.

الكلمات المفتاحية: الحاج صالح، الخليل، الأصالة، التقليد، ...

This research paper tends with the scholar Abdulrahman Al-Hajj Saleh which married the modern Western linguistic lessons with the Arabic linguistic legacy, The term “Al Assala“ that means " the originality" was the key to his researches, According to him, Al- Assala is not the opposite of modernity, but it is the opposite of the tradition.

We aim to open this pages in order to talk about the concept Al- Assala according to Abdulrahman Al-Hajj Saleh

عبد الرحمن الحاج صالح الجزائري:[1]

عالم في اللسانيات العربية، من مواليد 1928م، له شهادات علمية في اللغة والرياضيات والعلوم السياسية، حصل على شهادة الدكتوراه سنة 1979م من السوربون، كما انه عضو في مجموعة من المجامع العربية القاهرة، دمشق، عمّان وبغداد وغيرها، بالإضافة إلى أنه يحسن لغات متعددة.

درس في الكتّاب في ولاية وهران، كما تعلّم في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم رحل إلى الأزهر الشريف أين لفت انتباهه الخليل بن احمد الفراهيدي فعكف على دراسة آرائه ردحا من الزمن، ثم رحل إلى الغرب فتعلّم في جامعاتها ونل شهاداتها، ثم عكف على دراسة الرياضيات حتى يتمكن من تحصيل علم الخليل، له العديد من المشاريع التي تخدم اللغة العربية كالنظرية الخليلية الحديثة نسبة إلى الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي، نابغة العرب وسيد أهل الأدب، ومخترع العروض ومبتكر المعجمات ....، ضف إلى ذلك مشروع الذخيرة اللغوية .....

الحاج عبد الرحمن صالح والنحو العربي القديم:

لم يكن الحاج صالح ليمتلك ناصيته في اللغة العربية بنحوها وبعض علومها لو لم يطلع على كتابات وإبداعات القدامى خاصة النحويين الخليل بن احمد الفراهيدي وسيبويه، ما جعل العلماء وهو يقرؤون له يغيرون نظرته لنحو القدامى الذي تفشى فيه التحريف والتغليط نتيجة عدم فهم التابعين له خاصة أعلام القرن

الرابع هجري، ما أجزاهم بالضرورة إلى النحو نحو التيسير وكذا جعل النحو تعليميا أكثر منه علميا،ومن بين هؤلاء التواتي بن التواتي في مستهل حديثه عن جهود الحاج صالح الجزائري، يقول أن ذلك يجعله مجبرا على الحديث عن فطاحل النحو العربي مركّزا على منبعي الهام الحاج صالح ، يقل في ذلك:" بداية أجد نفسي مجبرا على الحديث عن الخليل وسيبويه في القرن الثني للهجرة لأن الدكتور الحاج صالح ينطلق من هذين العلمين الذين أسّسا النحو العربي بضبطهما قواعد اللغة وفق منهج علمي دقيق ، خاصة سيبويه الذي غدا إمام النحو والنحاة في اللغة العربية وهو الإمام الذي ظلّت أقواله وآراؤه محور أحاديث ودروس رجال اللغة والنحو والأدب عدّة قرون...."[2]، فالرجلين أحدثا وثبة كبيرة في ميدان الدراسات اللغوية تضاهي الدراسات اللغوية الغربية الحديثة بمختلف توجهاتها، وإنما يتميز السبق في ذلك بمدى دهاء العقل العربي منذ القديم.

كما يتحدث التواتي بن التواتي عن كتاب سيبويه الذي يمثل ثروة لغوية لا تمثل جهد سيبويه فحب، وإنما تلخص آراء الخليل وذلك أن سيبويه ضمّن أقوال شيخه في مقامات كثيرة ، يقول في ذلك: " يعتبر الكتاب جامعا لعلم سيبويه والخليل أيضا فقد ضمن سيبويه أقوال شيخه وأستاذه يقول الحاج صالح وأغلب ما تناولناه بالتحليل والتقويم هو ما ذكر من الأقوال العلمية للخليل في كتاب سيبويه تفوق 600 قولا وتحليلا وغيره، فالكتاب يشتمل على علم الرجلين سيبويه والخليل"[3] ، لذا فالكتاب ملك علمي لكل من سيبويه وشيخه الخليل، وإنما اقتران معرفة الكتاب بسيبويه فقط إنقاص من عظمة الخليل العلمية الذي ارتبط اسمه في أغلب الأحيان بعلم العرض فقط، على الرغم من توسع معارفه على مجالات متعددة، هو عالم نحرير له روافد علمية متعددة في مجال الدراسات اللغوية .

أصالة بحوث العرب القدماء:

تتسم أعمال العلماء العرب القدامى نخص بالذكر النحويين بالتميز والأصالة، ما ينفي حقيقة تأثرهم بالمنطق الأرسطي أو ما شابه، فقد كان لهم شأو كبير في التقعيد لعلوم لغوية متعددة من قبيل النحو والمعجميات والصوتيات بطرائق خاصة معتمدين عل مناهج تضاهي المناهج البحثية الغربية الحاثية، يقول التواتي بن التواتي محدثا عن كتاب سيبويه "ويعتبر الكتاب لسيبويه المصدر الوحيد الذي فسّر نظام اللغة العربية تفسيرا دقيقا انطلاقا من المدونة المجمع على صحتها وهي القراءات والحديث النبوي وكلام العرب وفق كيفيات تأصيل مضبوطة بينت أصالة البحث العلمي ودقّته في ضبط النصوص ومقارنتها والتمييز بين الشاذ منها والمطرد المشهور"[4]، فقد تميز الكتاب بدقّته العلمية المتناهية، إذ كان جامعا للشكل والمعنى، مغترفا من مجموعة من العلوم، فقد قام النحاة الأوائل بجمع المواد اللغوية في شكل مدونات، عملوا على التأكد من صحتها عن طريق كيفيات تتسم بالأصالة العملية البحثية، تماشيا وأصالة البحث العلمي المطروق، .....

والشهادة على تميز سيبويه في كتابه وإن شاركه الخليل فيه بآرائه لا تقتصر على العلماء العرب فحسب، تفاديا للنزعة العربية التعسفية، بل جاء الإقرار بتميزه على لسان أعلام غربية من بينهم مايكل كارتر، إذ رأى أن سيبويه كان له زاد علمي ضخم، يضاهي به أحسن الدراسات لغربية، يقول في ذلك : "ينبغي علينا أن ندرك التشابه الملحوظ بين هدف سيبويه من نظريته والخطوات العلمية التي اتبعها وبين هدف اللسانيين

المحدثين من نظريتهم والخطوات التي اتبعوها وإذا قدّر لسيبويه أن يولد في هذا القرن فإن رتبته العلمية ستكون بين دي سوسير وبلومفيلد" [5]، لقد جعل كارتر سيبويه بعلمه مضاهيا لأكبر الدارسين في العالم الغربي من قبيل سوسير وبلومفيلد، وما ذلك إلا أكبر دليل على أن كارتر أعجب فعلا بدهاء الرجل رغم تقدم عصره قرونا من الزمن.

افتخاره بالعلماء العرب:

كان العلم الفذ عبد الرحمن الحاج صالح معجبا أيّما إعجاب بالعلماء الأفذاذ، متبصرا في أعمالهم ، معجبا بمناهجهم وخطاهم، يقول عبد الرحمن الحاج صالح:"إن الخليل ليس هو وحده المسؤول عن كل ما أبدعه عباقرة العلماء الأولّين، فهناك من عاصره وكان عبقريا مثله، ومن جاء بعده وكان عبقريا مثله، وأذكر من هؤلاء الإمام الشافعي"[6] ، إن هؤلاء العباقرة كانت لهم أفكار أصيلة أثروا بها الأعمال البحثية العربية، فقد حاول الأستاذ أن يبين أن التراث العلمي اللغوي الأصيل مما أبدعه الأولون ثري بالأفكار الأصيلة، والمناهج النافعة، والتحليلات العميقة، وهي لا تقل قيمة عما جاءت به الدراسات الحديثة، وذلك مثل المفاهيم العربية في الصوتيات.[7]

يقول التواتي متحدثا عن علماء اللسان في القطر الجزائري:"أما في العصر الحديث فقد نبغ في الدراسات اللسانية علم فذ من أعلام الجزائر وهو العلامة عبد الرحمن الحاج صالح، لقد انتهج نهج الخليل بن احمد واقتفى أثره الحار على الحافر دارسا فكره النحوي، فاكب على الكتاب لسيبويه أكثر من ثلاثين سنة درسا و تحصيلا، ولم يكن مقلّدا فحسب بل كان مجددا وخرج بنظريته الفذّة وهي النظرية الخليلية وأظهر للناس أن لدى العرب نظريات في علم اللسان لا تقل أهمية عما لدى الغربيين من مفاهيم لسانية بل تفوقها في كثير من الأحيان"[8]

كما يدافع الحاج صالح عن أصالة البحث الخليلي ويبرؤه تماما من التأثر بالمنطق "والخليل أصيل لم يأخذ من غير إلاّ ما قاله لعلماء في النحو والصرف، مما أجمع على صحته وزاد على ذلك أشياء كثيرة جدا ، فهو استطاع مع غيره من العلماء وضع البنى الأساسية التي يصاغ عليها الكلم، ولا علاقة للمنطق الأرسطي في ذلك،لأنه لا يمكن أن يساعد الباحث اللغوي في ذلك إطلاقا لأنه بني على اندراج شيء في شيء وليس حمل شيء على شيء"[9]، قول الرجل هذا يعمل على تأكيد أصالة البحث اللغوي القديم كالبحث الخليل والسيبوي وغيرهم من عباقرة العرب.لذا تأثر هذا العلم الفذ بهؤلاء القامات، وعمل على مجاراتهم في قضية أصالة البحث وعدم تقفي البحوث القبلية دون إخضاعها للتحليل والتفسير

الحاج صالح والنحاة الأوائل :

اقتفى الرجل الأعمال العربية القديمة في الدراسة اللغوية ، والتي أهملها الكثير من العلماء المحدثين بعد اطلاعهم على الدراسات اللسانية الحديثة أنها عقيمة قائمة على المعيارية، إذ يؤكد الرجل أن هؤلاء الأعلام كان لهم السبق في وضع مناهج علمية سديدة وأفكار نيّرة في مجال الدراسات اللغوية، فقد " بنى الحاج صالح نظريته الرائدة مقتفيا أثر العبقرية الإسلامية في الدراسة اللغوية، التي اتهمت من قبل الجاحدين بالمعيارية"[10] ، وإنما تقفي أعمالهم جاء في صيغة القراءة والتمحيص والتفسير وليس في صيغة التقليد.

لم ينفلت الرجل على الدراسات العربية القديمة متحيزا ومتعصبا، تقول طيبي أمينة: "فلم يكن الرجل في دراسته للقدامى حكما أو جلادا ، لكنه كان موضوعيا معتدلا خلت كل كتابته من عبارات التحيز أو الأحكام المسبقة، لم يكن أعمى متأثرا بالغربيين ولم يكن متحجرا منغلقا مع القدامى، وهو ما نستشفه أثناء قراءة بحوثه وتعليقاته على دي سوسير"[11] ، كما لم يعكف على تبني الدراسات الغربية.

وتبعا لنظره الثاقب، وفطنته العلمية، تفطن الرجل إلى الاختلاف الكبير الواقع بين النحاة الأوائل ومن تبعهم في القرن الرابع هجري، إذ أساء هؤلاء الأعلام فهم الكتاب، مما أجزاهم بالضرورة إلى الانحراف في التفسير والتعليل، خاصة وأنهم عمدوا على تيسير النحو لأغراض تعليمية.يقول الحاج صالح في ذات الصدد:" لقد انتبهت إلى ذلك وأنا طالب علم، ولا سيما تلك الفوارق القائمة بين النحاة الأولين والمتأخرين منهم وهي عميقة على الرغم من اتحاد المصطلحات في الغالب فالمنحى ووجهة النظر ومناهج التحليل كلّ هذا تغير تغيرا عميقا"[12] ، يرجئ الرجل الانحراف الكامن بين الدراسات النحوية القديمة وبعض التفسيرات التحليلية خلال القرن الرابع هجري إلى سوء فهم كتاب سيبويه، والنزوح نحو التيسير .

كما يتحدث الرجل عن النظريات التي وضعها اللسانياتيون في زمننا هذا، فيقول انه قد حدث اكتشاف آخر جد مهم بالنسبة للباحثين في اللسانيات بصفة عامة، والباحثين العرب بصفة خاصة، وبجنبها مجموعة من المناهج التحليلية عند أقدم النحاة العرب لا تقل أهمية عما أثبته اللسانيات الحديثة، وأجل هؤلاء النحاة وأكثرهم أصالة هم الخليل وسيبويه والأخفش الأوسط وأبو علي الفارسي وابن جني"[13] .

عبد الرحمن الحاج صالح من رواد الأصالة :

حاول الحاج صالح المزاوجة بين الإرث القديم بالعلوم اللسانية الحديثة وتطبيقاتها، إذ "نجد أن الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح قد بنى فكره اللساني على التراث اللغوي العربي القديم، والتراث اللساني الإنساني القديم، والنظريات اللسانية العربية الحديثة، وأشاد بجهود علمائنا الأفذاذ أمثال الخليل وسيبويه وأبي علي الفارسي وابن جني، وما تركوه لنا من أفكار نيرة ما زالت ماثلة للعيان إلى اليوم" [14]

معنى الأصالة :

يتحدث الحاج صالح عن الأصالة قائلا: "فأما الأصالة فإننا لا نشاطر نظرة الكثير من المثقفين عندما يقابلون هذا المفهوم بالحداثة أو المعاصرة فإن الأصالة تقابل في الحقيقة التقليد أيّا كان المقلّد المحتذى به،سواء كان العلماء العر ب القدامى أو العلماء الغربيين ، إذ الأصيل هو الذي لا يكون نسخة لغيره"[15]، كما يتحدث عمن يقابلون الأصالة بالمعاصرة أنهم لا يتصورونها دون الرجوع إل القديم والإنعكاف على دراسته وتبجيله،

ويقول الحاج صالح:" فالأصيل في الواقع هو المبدع الذي يأتي بشيء جديد لم يسبق إليه مهما كان الزمان الذي يعيش فيه" [16]، فالأصالة في زماننا هذا –حسب الرجل- تعني الامتناع عن تقليد الغربيين خاصة.

كما أن الرجل يرفض التقليد رفضا قاطعا، فهو من مناصري الابتكار يقول في ذات الصدد:"هذا ولا أقصد من لفظ التقليد أكثر مما قصده علماؤنا قديما فهو اتباع الانسان لغيره فيما يقول أو يفعل معتقدا الحقيّة فيه

من غير نظر وتأمل في الدليل .....أو بعبارة أخرى هو اتخاذ أقوال الغير كحقائق لا تقبل الجدال وعدم الإتيان بأي ابتكار وهذا لا يعني أن الإنسان مجبر على ابتكار جميع ما عنده"[17]

يرى الحاج صالح التقليد على وجهين مختلفين، سواء أتمّ ذلك على مستوى تقليد العرب القدامى، أو تقليد الدراسات الغربية، يقول في ذات الصدد: " فهذا هو موقف العالم ذي الأصالة -وكنا وما يزال الكثير منا- من يقلد الآن الغربيين فاستبدلوا بذلك تقليدا بتقليد.

أوجه تقليد القدامى وسلبيات ذلك:[18]

يقول التواتي بن التواتي: " أنا الحاج صالح –رحمه الله- قد وفّق في معالجة قضايا النّحو العربي وإخراجه من دائرة التّعلّمية الضّيّقة التي لازمته زمنا طويلا وجعله يرقى إلى مصاف النظريات اللسانية الحديثة التي كان لها دور في كشف الخليل وسيبويه بأنهما انطلقا من نظرية تجريدية عاملية علائقية أثبتت صحتها "[19] .

يقول الحاج صالح أن التقدم الذي نريد تحقيقه في علوم اللسان النظرية والتطبيقية وفي علم العربية خاصة لن يتم في نظره إلا بتحقيق شيئين اثنين:

-الاختبار المتواصل لجميع النظريات بالتكنولوجيا الحديثة

-الرجوع إلى التراث الأصيل.وكذا ترك غير الأصيل مع مواصلة البحث انطلاقا ما تركه لنا علماؤنا القدامى المبدعون.[20]

يتحدث بلعيد صالح عن عبد الرحمن الحاج صالح :" "لقد بذل الباحث جهدا من أجل الحفاظ على اللغة العربية وإثرائها وجعلها وافية بمستحدثات العلم الحديث ، قادرة على الدوام على أداء رسالتها أدق فكان يصر على المعرفة بالنماذج القديمة التي تكسب المتن اللغوي الصحيح، لا العربية التي يغلب عليها السجع وانتقاء الألفاظ ، فلا يلزم امتلاك معرفة مستفيضة بالتفصيلات المعقدة للنحو العربي، لأنه لا ينظر إلى النحو على أنه الإعراب والتفقه، بل الأساس فيه هو التمسّك بآليات الإعراب الذي يجلي المعاني، وبهذا غرس الاتجاه العقلي في اللغة يعد تنقيح النقل، وظل قوامه على عمله الأكاديمي في أعماله التي ربط فيها بين الدراسات العربية القديمة والحديثة مع الدراسات الغربية"[21]،

فقد حاول عبد الرحمن الحاج صالح كما جاء على لسان صالح بلعيد تبيان ثراء التراث العلمي اللغوي الأصيل من خلال إبداعات الأولين وكذا مدى ثرائه بالأفكار الأصيلة والمناهج النافعة والتحليلات العميقة، وهي لا تقل عما جاءت به الدراسات الحديثة.

كما يركز عبد الرحمن الحاج صالح على الأصالة اللغوية التي "تقابل في الحقيقة التقليد أيّا كان المقلّد المحتذى به سواء كان العلماء العرب القدامى أو العلماء الغربيين إذ الأصيل هو الذي لا يكون نسخة لغيره"[22].

نماذج الأصالة عند عبد الرحمن الحاج صالح:

أ/ النحو:

انتاب الدرس النحوي العربي عدّة خلافات ونزاعات بين قطبين عاكسين: القطب الأول مؤلف من العلماء الذين تشبّثوا بالتراث العلمي القديم، أما القطب الثاني مكون من أولئك الذين تأثروا بالمذاهب الغربية فراحوا

يرفون ما قاله القدماء، لذا حاول عبد الرحمن الحاج صالح التخفيف من حدة الخلاف متعمدا ربط التراث العربي الأصيل بما استجد على يد لبحث اللساني الغربي الحديث ومما أجمع على صلاحيته، أو من خلال تسليط النقد البناء عليه[23].

اللسانيات: يعد عبد الرحمن الحاج صالح أحد دعاة القراءة الواعية للتراث والدراسة العميقة له بمفاهيم آنية، إذ يعيد بناء المفاهيم بوعي جديد، أي يعمل على قراءة اللغة العربية من خلال اللسانيات الحديثة، كما قام بالمقارنة بين الدراسات اللغوية العربية القديمة وبين ما أنتجته اللسانيات الحديثة[24].

الخاتمة:

هكذا كان الرجل ، عالما نحريرا ، أراد التميّز فعلا، فلم يتوان عن تحقيق خطوات التميّز، لقد أفنى سنوات وسنوات في الاطلاع على الحديث والعودة إلى القديم، متفانيا في تحقيق دراسة أصيلة بعيدة كل البعد عن التقليد الأعمى للدراسات العربية القديمة وكذا الدراسات الحديثة.

المصادر والمراجع:

[1]- ينظر التواتي بن التواتي: المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، دار الوعي، الجزائر، 2008، ص85، بتصرف.

[2]- التواتي بن التواتي : مداخلة بعنوان الخلفية المعرفية لجهود الدكتور صالح وتشومسكي، ملتقى الجهود اللغوية لدى عبد الرحمن الحاج صالح، 12/11 مارس 2018.

[3]- الجهود اللغوية لدى عبد الرحمن الحاج صالح: أعمال ملتقى وطني، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة جيلالي ليابس ، سيدي بلعباس، دار الخلدونية ، الجزائر، 12/11 مارس 2018، ص21.

[4]- الجهود اللغوية لدى عبد الرحمن الحاج صالح: أعمال ملتقى وطني، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة جيلالي ليابس ، سيدي بلعباس، دار الخلدونية ، الجزائر، 12/11 مارس 2018، ص21.

[5]- التواتي بن التواتي: مداخلة الخلفية .المعرفية في ملتقى الجهود اللغوية لدى عبد الرحمن الحاج صالح، ص24.

[6]- عبد الرحمن الحاج صالح: النظرية الخليلية الحديثة ، ص89.

[7]- ضيف الله السعيد: إسهامات عبد الرحمن الحاج صالح الجزائري في تيسير البحث اللغوي، مجلة العاصمة، م 9، جا الجزائر، الجزائر، 2018، ص 162. بتصرف.

[8]- التواتي بن التواتي: المدارس النحوية، دار الوعي ، الجزائر، 2008، ص138.

[9]- عبد الرحمن الحاج صالح: النظرية الخليلية الحديثة، ص89

[10]- مختارية بن قابلية/ فاطمة الزهراء حبيب زحماني: الإحصاء بين اللسانيات والرياضيات من منظور عبد الرحمن الحاج صالح، فعاليات ملتقى الجهود اللغوية لدى عبد الرحمن الحاج صالح، ص 52. بتصرف.

[11]- طيبي أمينة: المفاهيم التربوية في كتابات الحاج صالح، ملتقى الجهود اللغوية لدى عبد الرحمن الحاج صالح، ص93.

[12]- عبد الرحمن الحاج صالح: النظرية الخليلية الحديثة، ص 07.

[13]- عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص 182.

[14]- منصوري الميلود: الفكر اللساني عند عبد الرحمن الحاج صال من خلال مجلة اللسانيات، مجلة العلوم الانسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، جا محمد خيضر، بسكرة، يناير 2005، ص 48.

[15]- عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، الجزائر، 2012،ج1 ،ص11.

[16]- الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات، ج1، ص11.

[17]- الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات، ج1، ص 12/11.

[18] - ينظر م ن، ص 13/12.

[19]- التواتي بن التواتي : أعمال الملتقى الوطني الجهود اللغوية لدى عبد الرحمن الحاج صالح، ص24.

[20]- الحاج صالح: تكنولوجيا اللغة والتراث اللغوي الأصيل ضمن كتاب بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص282، ج1. ص

[21]- صالح بلعيد: مقاربات منهاجية، ص 148.

[22]- عبد الرحمن الحاج: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، 2012، ص11.

[23]- صالح بلعيد: مقاربات منهاجية، ص 149، بتصرف.

[24]- صالح بلعيد: مقاربات منهاجية، ص 149.بتصرف